

التحرير والتنوير

(وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون [4]) E A بلاغة القرآن في تغيير الأسلوب عند الانتقال إلى ذكر النعم الدالة على قدرة الله تعالى فيما ألهم الناس من العمل في الأرض بفلحها وزرعها وغرسها والقيام عليها فجاء ذلك معطوفاً على الأشياء التي أسند جعلها إلى الله تعالى ولكنه لم يسند إلى الله حتى بلغ إلى قوله (ونفضل بعضها على بعض في الأكل) لأن ذلك بأسرار أودعها الله تعالى فيها هي موجب تفاضلها . وأمثال هذه العبر ولفت النظر مما انفرد به القرآن من بين سائر الكتب .

وأعيد اسم (الأرض) الظاهر دون ضميرها الذي هو المقتضى ليستقل الكلام ويتجدد الأسلوب وأصل انتظام الكلام أن يقال : جعل فيها زوجين اثنين وفيها قطع متجاورات فعدل إلى هذا توضيحاً وإيجازاً .

والقطع : جمع قطعة بكسر القاف وهي الجزء من الشيء تشبيهاً لها بما يقطع . وليس وصف القطع متجاورات مقصوداً بالذات في هذا المقام إذ ليس هو محل العبرة بالآيات بل المقصود وصف محذوف دل عليه السياق تقديره : مختلفات الألوان والمنابت كما دل عليه قوله تعالى (ونفضل بعضها على بعض في الأكل) .

وإنما وصفت متجاورات لأن اختلاف الألوان والمنابت مع التجاوز أشد دلالة على القدرة العظيمة وهذا كقوله تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) . فمعنى (قطع متجاورات) بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة .

والاقتصار على ذكر الأرض وقطعها يشير إلى اختلاف حاصل فيها عن غير صنع الناس وذلك اختلاف المراعي والكلاً . ومجرد ذكر القطع كاف في ذلك فأحالهم على المشاهدة المعروفة من اختلاف منابت قطع الأرض من الأب والكلاً وهي مراعي أنعامهم ودوابهم ولذلك لم يقع التعرض هنا لاختلاف أكله إذ لا مذاق للآدمي فيه ولكنه يختلف شره بعض الحيوانات على بعضه دون بعض .

وتقدم الكلام على (جنات من أعناب) عند قوله تعالى (ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب) .

والزرع تقدم في قوله (والنخل والزرع مختلفا أكله) .

والنخيل : اسم نخلة مثل النخل وتقدم في ذلك الآية وكلاهما في سورة الأنعام .

والزرع يكون في الجنات يزرع بين أشجارها .

وقرأ الجمهور (وزرع النخل) بالجر عطفاً على (أعناب) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص

ويعقوب بالرفع عطفا على (جنات) . والمعنى واحد لأن الزرع الذي في الجنات مساو للذي في غيرها فاكتفى به قضاء لحق الإيجاز . وكذلك على قراءة الرفع هو يغني عن ذكر الزرع الذي في الجنات والنخل لا يكون إلا في جنات .

وصنوان : جمع صنو بكسر الصاد في الأفصح فيهما وهي لغة الحجاز وبضمها فيها أيضا وهي لغة تميم وقيس . والصنو : النخلة المجتمعة مع نخلة أخرى نابتين في أصل واحد أو نخلات . صنو والمثنى صنوان بدون تنوين والجمع صنوان بالتنوين جمع تكسير . وهذه الزنة نادرة في صيغ أو الجموع في العربية لم يحفظ منها إلا خمسة جموع : صنو وصنوان وقنو وقنوان وزيد بمعنى مثل وزيدان وشقد " بذال معجمة اسم الحرياء " وشقذان وحش " بمعنى بستان " وحشان . وخص النخل بذكر صفة صنوان لأن العبرة بها أقوى . ووجه زيادة (وغبر صنوان) تجديد العبرة باختلاف الأحوال .

وقرأ الجمهور (صنوان وغير صنوان) بجر (صنوان) وجر (غير) عطفا على (زرع) وقرأهما ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب " بالرفع " عطفا على (وجنات) . والسقي : إعطاء المشروب . والمراد بالماء هنا ماء المطر وماء الأنهار وهو واحد بالنسبة للمسقي ببعضه .

والتفصيل : منه الأفضل وعبرة به وبضده وكناية عن الاختلاف . وقرأ الجمهور (تسقى) بفوقية اعتبارا بجمع (جنات) وقرأه ابن عامر وعاصم ويعقوب (يسقى) بتحتية على تأويل المذكور . وقرأ الجمهور (ونفضل) بنون العظمة وقرأه حمزة والكسائي وخلف (ويفضل) بتحتية . والضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله (الذي رفع السماوات بغير عمد) . وتأنيث (بعضها) عند من قرأ (يسقى) بتحتية دون أن يقول بعضه لأنه أريد يفضل بعض الجنات على بعض الثمرة .

والأكل : بضم الهمزة وسكون الكاف وهو المأكول . ويجوز في اللغة ضم الكاف